بها ، لا من ناحية الغفران والرحمة ، وإنما من ناحية طلاقة القدرة والعزة التى لا يستدرك عليها أحد .

﴿ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴾ [المائدة] والمعنى : لو قال الناس لماذا غفرتَ لهم مع أنهم قالوا كذا وكذا ؟ فالإجابة أننى أنا العزيز الذى أغلب ولا أُغلب ، ولا يستدرك أحد على حكمى ، إذن : ذيَّل الآية بالعزة لعزة الله تعالى فى خَلْقه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨) ﴾

الحق سبحانه وتعالى يؤكد دائماً على قضية البعث والقيامة ، ويريد سبحانه أنْ ينصب للناس فى حركة حياتهم موازين الجزاء ؛ لأن كل عمل لا توجد فيه موازين للجزاء يعتبر عملاً باطلاً ، ولا يمكن أنْ يستغنى عن الجزاء ثواباً وعقاباً إلا مَنْ كان معصوماً أو مُسخَّراً ، فالمعصوم قائم دائماً على فِعْل الخير ، والمسخَّر لا خيارَ له فى أنْ يفعل أو لا يفعل .

إذن : إذا لم يتوفر مبدأ الجزاء ثواباً وعقاباً فى غير هذين لا بُدَّ أنْ يوجد فساد ، إذا لم يُثب المختار على الفعل ، ويعاقب على الترك اضطربت حركة الحياة ، حتى فى المجتمعات التى لا تؤمن بإله وضعت لنفسها هذا القانون ، قانون الثواب والعقاب .

والحق - سبحانه وتعالى - يعطينا مثالاً لهذا المبدأ فى قوله تعالى من قصة ذى القرنين : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ

شيء سببا (٨٤) فأتبع سببا (٨٥)﴾ [الكهف]

أراد الحق سبحانه أن يبين أن الرجل الممكّن فى الأرض له مهمة ، هذه المهمة هى شكر الله على التمكين ولا يكون إلا بإقامة ميزان العدالة فى الكون ﴿حتى إذا بلغ مغرب الشمس .. (٨٦)﴾ [الكهف] أى : فى رأى العين ، وإلا فهى لا تغرب أبداً ، إنما تغرب عن جماعة فى مكان ، وتشرق على جماعة فى مكان آخر .

﴿وجدها تغرب في عين حمئة ووجد عندها قوما قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا (٨٦)﴾ [الكهف]

ولا يُفوَّض إنسان فى أنْ يُعذِّب أو يتخذ الحسنى إلا إذا كانت لديه مقاييس وميزان العدالة ، وقد قال الله عنه : ﴿وآتيناه من كل شيء سببا (٨٤)﴾ [الكهف] أى : نعمة وميزاناً لتوزيع هذه النعمة ، فلم تقتصر نعمة الله عليه فى أنه صاحب سلطان وجبروت ، إنما عنده المقوّمات الحياتية ، وعنده ميزان العدالة الذى يضبط استطراق النِّعَم فى الكون كله .

فالذى خُيِّر فى أنْ يفعل أو لا يفعل أراد أنْ يبين منهجه فى أنه لم يأخذ الاختيار وسيلة لتثبيت الأهواء ؛ لذلك قال بعدها : ﴿أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا (٨٧)﴾ [الكهف] هذا هو العقاب ﴿وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا (٨٨)﴾ [الكهف] أى : بعد أنْ ينال ثوابه ، نعطيه فوق ذلك حوافز تشجعه ، ونقيم له حفلة تكريم لنغرى غيره بأن يسلك مسلكه .

إذن : فقضية الثواب والعقاب أمر لازم ، وإذا كان هذا فى الأمور الحياتية الجزئية ، فهو أوْلى فى أمور الدين والقيم التى تسيطر على كل موازين الحياة ، لا بُدَّ من وقت للثواب وللعقاب ، وإلا استشرى

الظلم واغتال الناس ، وقضى عليهم ، وأخذ منهم كل مُتع الحياة ، فانتفع بذلك المفسد ، وخاب كل مَن التزم بدين الله وقيم منهجه .

لذلك تجد الحق - تبارك وتعالى - يؤكد دائماً على مسألة البعث والقيامة والحساب ، وترى أعداء الدين يحاولون أنْ يُشككوا فى هذه القضية ، وأنْ يُزحزحوا الناس عن الإيمان بها بطرق شتى .

فالفلاسفة لهم فى ذلك دور ، وللملاحدة دور ، ولأهل الكتاب دور ؛ لذلك تجد التوراة مثلاً تكاد تخلو من إشارة عن اليوم الآخر ، وهذا أمر غريب لا يمكن تصوره فى كتاب ودين سماوى ومنهج حياة .

وما ذلك إلا لأن أهل التوراة أرادوا أنْ يُزحزحوا الناس عن أمور عدة ليثبتوا لأنفسهم سلطة زمنية مادية ، حتى إنهم طمعوا فى أنْ يرتقوا بهذه السلطة حتى يصلوا إلى الله تعالى ، كما حكى القرآن عنهم : ﴿ **وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ..** (٥٥) ﴾ [البقرة]

ولما أنزل الله عليهم المنَّ ، وهو مادة حُلْوة كطعم القشدة جعلها تتساقط عليهم ، وأنزل عليهم السلوى ، وهى طيور مثل السمان تنزل عليهم جاهزة مُعدَّة للتناول رفضوا عطية الله لهم ، وطعامه الذى أعدَّ من أجلهم ، وقالوا : بل نريد طعاماً نصنعه بأيدينا ، وقالوا : ﴿ **لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ ..** (٦١) ﴾ [البقرة] ، فقال لهم : ﴿ **ٱهْبِطُوا مِصْرًا**[1] **فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ..** (٦١) ﴾ [البقرة]

وما دام الأمر بالنسبة لهؤلاء مادياً فلا بُدَّ أنْ يزحزح نفسه عن

---

(١) المصر : واحد الأمصار . ومصَّروا الموضع : جعلوه مصْراً . وقال الليث : المصر فى كلام العرب كل كورة تقام فيها الحدود ويقسم فيها الفىء والصدقات . [لسان العرب - مادة : مصر] .

الآخرة وعن القيامة والحساب ، لذلك راحوا يُشككون فيها ، أما الفلاسفة فقالوا : حين يبعث الله إنساناً بعد الموت وقد تحللتْ أعضاؤه وصارت تراباً ، ثم غرست في هذا المكان شجرة فتغذتْ من هذا التراب ، وأكل إنسان آخر من ثمارها وانتقلتْ إليه بعض خلايا وجزئيات الأول ، فإذا كان هناك بعث أتُبعث هذه الجزئيات مع الأول أم مع الآخر ؟ فإنْ كانت مع الأول فهي نقص في الآخر والعكس . هذه هي شبهة الفلاسفة .

وقد تخبَّط الفلاسفة هذا التخبُّط ؛ لأنهم لم يفطنوا إلى شيء في الوجود يعطي قيماً للغيبيات ، وقد أوضحنا هذه المسألة فقلنا لهم : لو أن إنساناً يزن مائة كيلو مثلاً أصيب بمرض أفقده أربعين كيلو من وزنه ، فماذا يعني هذا النقص بالنسبة للشخص نفسه ؟

هذه المسألة يتحكم فيها أمران : الغذاء والإخراج ، ففي فترة النمو يكون الداخل للجسم أكثر من الخارج ، أما في فترة الشيخوخة مثلاً فالخارج أكثر ، فإنْ توازن الأمران كانت حالة من الثبات لا يزيد فيها الشخص ولا ينقص ، وهي فترة الثبات .

فالشخص الذي نقص من وزنه أربعون كيلو ، ثم شفاه الله وعادت إليه عافيته حتى زاد وزنه وعاد إلى حالته الطبيعية ، فهل تغيَّر الشخص حال نقصان وزنه ؟ وهل تغيَّر حال عودته إلى طبيعته ؟ أم ظلت الشخصية والذاتية هي هي ؟

إذن : المسألة في تكوين الجسم ليست ذرات وجزيئات ، إنما هي شخصية معنوية خاصة وإنْ تكوَّنت من جزيئات المادة وهي الستة عشر عنصراً التي تكوِّن جسم الإنسان ، والتي تبدأ بالأكسوجين وتنتهي بالمنجنيز ، وهي نفس العناصر المكوِّنة لتربة

الأرض التى نأكل منها ، وهذه العناصر بنسب تختلف من شخص لآخر .

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ④﴾ [ق] يعنى : نعرف ما نقص من كل إنسان : كذا من الحديد ، وكذا من الأكسوجين ، وكذا من الفسفور .. إلخ .

إذن : حين يبعث الله الإنسان بعد الموت يبعث هذه الشخصية المعنوية بهذه الأجزاء المعروفة ، فيأتى الشخص هو هو .

ومن القضايا التى أثاروها فى مسألة البعث والالتباسات التى يحاولونها يقولون : الله تعالى يخلق الإنسان فى مدة تسعة أشهر ، أو ستة أشهر ، يمر خلالها بعدة مراحل : نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم عظاماً ، ثم يكسو هذه العظام لحماً ، هذا للإنسان الواحد ، فكم تستغرق إعادة خَلْق البشر من لَدُن آدم عليه السلام حتى قيام الساعة ؟

ونقول : لقد ذكرتم كيفية خَلْق سلالة الإنسان والتى تستغرق تسعة أو ستة أشهر ، لكن لم تذكروا خَلْق الأصل ، وهو آدم عليه السلام ، وقد خلقه الله على هيئته وصورته التى كان عليها ، فلم يَكُنْ صغيراً وكبر ، إنما خُلِق كبيراً مستوياً كاملاً ، ثم نُفِخت فيه الروح .

ثم إن عناصر الفعل هى : الفعل ، والفاعل ، والمنفعل ، يُضاف إليها الزمن الذى سيتم فيه الفعل ، فأنا أريد أنْ أنقل هذه (الحملة) من هنا إلى هناك ، فنقلنا فعل ، وأنا الفاعل ، والحملة هى المنفعل ، ثم الزمن الذى يستغرقه الحدث ، والزمن يعنى توزيع جزئيات الحدث على جزئيات الزمن ، فإذا أردتَ أنْ تخيط ثوباً بطريقة يدوية فإنه يأخذ منك وقتاً طويلاً ، فإن خِطْه بالماكينة أخذ وقتاً أقلّ بكثير .

إذن : فزمن الفعل يتناسب مع قوة الفاعل ، وتذكرون أنه فى الماضى كانت الشوارع تضاء بمصابيح الزيت ، وكان لكل منطقة عامل يصعد على سلم إلى كل فانوس ليشعله ، أما الآن فتستطيع أن تنير مدينة بأكملها بضغطة زر واحد . إذن : كلما زادتْ القوة قلَّ الزمن .

فتعال إذن إلى مسألة البعث والإعادة بعد الموت : أهى بقوتك أنت لتحسبها بما يناسب قوتك وقدرتك ؟ إنها بقوة الله عز وجل ، والله لا يعالج الأمور كما نفعل ولا يزاولها ، إنما يفعل سبحانه بكُنْ . إذن : فالفعل بالنسبة لله تعالى لا يحتاج إلى زمن تُوزَّع فيه جزئيات الفعل على جزئيات الزمن .

ولمَ تستبعد هذا فى حقِّ الله تعالى ، وقد أعطاك ربك طرفاً منه رغم قدرتك المحدودة ؟ ألستَ تجلس فى مثل هذا المجلس فترانا جميعاً مرة واحدة فى نظرة واحدة ، كذلك تسمع الجميع دفعة واحدة ؟ ألستَ تقوم بمجرد أن تريد أنْ تقوم ، وتنفعل جوارحك لك بمجرد أنْ يخطر الفعل على بالك ؟ أتفكر أنت فى العضلات التى تحركتْ والإشارات التى تمتْ بداخلك لتقوم من مجلسك ؟

وقد سبق أنْ أوضحنا هذه المسألة حين قارنَّا حركة الإنسان فى سلاستها وطواعية الجوارح لمراد صاحبها بحركة الحفار مثلاً ، فهو لا يؤدى حركة إلا بالضغط على زر خاص بها .

فإذا كنت أنت أيها العبد تنفعل لك جوارحك وأعضاؤك بمرادك فى الأشياء ، فهل تستبعد فى حق الله أنْ يفعل بكلمة كُنْ ؟ كيف وأنت ذاتك تفعل بدون أنْ تقولها ، مجرد الإرادة منك تفعل ما تريد .

فإنْ قلتَ : كيف يفعل الحق سبحانه بكلمة كُنْ ، وأنا أفعل بدون أنْ أقولها ؟ نقول : نعم أنت تفعل بدون كُنْ ؛ لأن الأشياء ليست

منفعلة لك أنت ، إنما هى مُسخَّـرة بكُنْ الأولى حين قال الله لها كونى مُسخَّرة لإرادته ، إذن : أنا أفعل بدون كُنْ ؛ لأنها ليست فى مقدورى أنا ، فكأن كُنْ الأولى من الله تعالى هى كُنْ لنا جميعاً .

وبهذا الفهم استطعنا تفسيـر حادثة الإسراء والمعراج ، واستطعنا الرد على منكريها ، فـالله يقول : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا .. ① ﴾ [الإسراء]

فلما سـمع الكفار بالحـادثة أنكروها وقالوا : كـيف ونحن نضرب إليها أكبـاد الإبل شهراً ؟ نعم أنتم تضربون إليها أكـباد الإبل شهراً ؛ لأن فعلكم يحـتاج إلى زمن ومـزاولة نوزع فيهـا جزئيـات الفعل على جزئيات الزمن ، أمَّا محمد فلم يقُلْ سريتُ ، فيكون فى الفعل كأحدكم إنما قال : أُسرِى بى[1] .

إذن : فهو مـحمول على قدرة أخرى ، فالفـعل لا يُنسب إليه إنما إلى حـامله إلى الله ، وقلنا : كلما زادتْ القـوة قلَّ الزمن ، فإذا كـانت القوة قوة الحق ـ تبارك وتعالى ـ فـلا زمن ؛ لذلك يقول سبحانه فى مـسألة الخَلْق والإعـادة : ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ .. ㉘ ﴾ [لقمان]

فـالأمر يسـير عـلى الله ؛ لأن خَلْق النفس الواحـدة وخَلْق جمـيع الأنفس يتم بكُنْ ، فالمسـألة لا تحتاج إلى تسعة أو ستة أشهر .

وضربنا مثلاً لتوضيح هذه المسألة بصناعة الزبادى مثلاً ، فأنت تأتى باللبن وتضع عليـه المادة الـمعروفـة وتتـركه فى درجـة حرارة معينة فـيتحول تلقائياً إلى الزبـادى الذى تريده ، فهل جلستَ أمام كل

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧١٠) ، ومسلم فى صحيحه ـ (١٧٠) من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه .

علبة تُحوِّلها بنفسك ، أم أنك عملت العملية المعروفة فى هذه الصناعة ، ثم تركت هذه المواد تتفاعل بذاتها ؟

كذلك شاء الله تعالى أنْ يوجد الإنسان جنيناً فى بطن أمه ، وأن تجرى عليه أمور النمو بطبيعتها ، إذن : خَلْق الإنسان لا يقاس بالنسبة لله تعالى بالزمن ، وقد حَلَّ لنا الإمام على كرم الله وجهه هذه القضية حينما سُئل : كيف يحاسب الله الناس جميعاً من لَدُن آدم عليه السلام إلى قيام الساعة فى وقت واحد ؟

فقال : يحاسبهم جميعاً فى وقت واحد ، كما أنه يرزقهم جميعاً فى وقت واحد[1] ؛ لأنه سبحانه لا يشغله شأن عن شأن .

ثم يذيل الحق سبحانه هذه الآية بقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ** (٢٨) ﴾ [لقمان] سميع وبصير صيغة مبالغة من السمع والبصر ، وقلنا : إنك وأنت العبد المخلوق تستطيع أن ترى هذا الجمع مرة واحدة فى نظرة واحدة ، وكذلك تسمعه ، فما بالك بسَمْع الله تعالى وبصره ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩) ﴾

---

(١) سئل الإمام على بن أبى طالب : كيف يحاسب الله الخلق على كثرتهم ؟ فقال : كما يرزقهم على كثرتهم . [شرح نهج البلاغة ـ للشريف الرضى ـ طبعة دار الشعب ص ٤٠٤ فقرة ٢٩٨] .

هذه آيات كونية واضحة مرئية للجميع : للمؤمن وللكافر ، للطائع وللعاصى ، ، فالحق سبحانه يوزع لنا الوقت بين ليل ونهار ، لكنه ليس توزيعاً متساوياً (ميكانيكياً) ، بحيث يكون كل منهما أربعاً وعشرين ساعة ثابتة على التقدير الجبرى كما يقولون ؛ لذلك نرى اليوم ينقص مثلاً عن الأربع وعشرين ساعة عدة دقائق تُضاف إلى زمن الليل أو العكس .

لذلك قالوا من أيام بطليموس : السنة ٣٦٥ يوماً وخمس ساعات ، وخمس وخمسون دقيقة ، واثنتا عشرة ثانية بالدقة . بعدها انتهوا إلى أن السنة ٣٦٥ يوماً وربع يوم عن طريق الجبر ، فكل ثلاث سنين نجبر الرابعة ، ويقولون : سنة بسيطة ، وسنة كبيسة أى : طويلة ، فالتى تقبل القسمة على أربعة سنة كبيسة ، لذلك نجد شهر فبراير فى هذه السنة ٢٩ يوماً ، ذلك لنعوض اليوم .

وكلمة يوم تعنى الليل والنهار ، لكن القسمة بينهما ليست متساوية . فالحق ـ تبارك وتعالى ـ بصنعته الحكيمة أراد أنْ يُوزع الحرارة والبرودة على كل مناطق المعمورة ، ويعطى لكل منطقة ما تحتاجه لتنبت أرضها ، وتعطينا نحن مقومات حياتنا ، بدليل أن من النباتات ما لا ينمو إلا فى الصيف ، ومنها ما لا ينمو إلا فى الشتاء ، كذلك فى الاعتدال الربيعى والاعتدال الخريفى .

لذلك ، عرفنا أخيراً أن الخالق سبحانه جعل لمحور الأرض ميلاً بمقدار ٢٣,٥ درجة عن مستوى مدارها فهى إذن غير مستوية ، ففى فصل الشتاء يكون القسم الكبير منها مواجهاً لليل ، والآخر مواجهاً للنهار ، فتجد ليل الشتاء أطول من ليل الصيف وأبرد منه ، ويبلغ ليل الشتاء أقصى ما يمكن من الطول وهو ١٢ ساعة فى شهر كيهك ،

حتى أن الفلاحين يقولون فى كيهك (كياك صباحك مساك قوم من نومك حضر عشاك) .

ومقابل ذلك فى فصل الصيف ، فكأن ميل محور الأرض سرٌ من أسرار هندسة هذا الكون ، ففى الحادى والعشرين من حزيران (يونيو) يبدأ الانقلاب الصيفى ، وفى الثالث والعشرين من كانون الأول (ديسمبر) يبدأ الانقلاب الشتوى ، ثم الاعتدال الربيعى فى الحادى والعشرين من آذار (مارس) ، والاعتدال الخريفى فى الثانى والعشرين من أيلول (سبتمبر) . وفى الاستواء الربيعى والاستواء الخريفى تجد أن الليل مساو للنهار ، وجوّهما معتدل لا حر ولا برد .

فقول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ .. (٢٩) ﴾ [لقمان] يعنى : لا تظن أن الليل والنهار قسمة متساوية ؛ لأن الله تعالى بحكمته يُدخل جزءاً من الليل فى النهار ، أو جزءاً من النهار فى الليل ، فيزيد فى أحدهما ، وينقص من الآخر لحكمة أرادها سبحانه وتعالى لصالح الإنسان ، وإمداداً له بمقوِّمات حياته ، لتعلم أن ما يطرأ على الليل أو النهار من تغيير الأشياء لها مناط فى الحكمة الإلهية العليا .

وحين نُقسِّم اليوم إلى ليل ونهار ـ وهى قسمة كما قلنا ليست رتيبة ولا متساوية ـ فإن لليل مهمة فى الحياة وللنهار مهمة ، كما بيَّن لنا سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) ﴾ [النبأ]

معنى اللباس أن تسكن فيه وتكنّ وتستر نفسك ؛ لذلك عرفنا فيما بعد أن الضوء أثناء النوم أمر غير صحى ، وفهمنا قول رسول الله : « أطفئوا المصابيح إذا رقدتم »[1] .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٦٢٤) وأحمد فى مسنده (٣/٣٨٨) عن جابر بن عبد الله ، واللفظ للبخارى .

والحق سبحانه يوضح لنا هذه المسألة في قوله تعالى : ﴿ وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) ﴾ [الضحى] ويقول : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) ﴾ [الليل] ليبين لك أن لكل منهما مهمة فى حركة حياتك ، فالنهار للحركة ، والليل للسكون ، وعليك ألا تخلط بين هاتين المهمتين دون داع ، وقد استثنينا من هذه القاعدة مَنْ تحتم عليهم طبيعة عملهم أنْ يعملوا بالليل ويرتاحوا بالنهار .

والخالق عز وجل جعل فى حركة الليل والنهار أسراراً وعجائب ينبغى أن نتنبه إليها بمعطيات العلم ، ومن حكمة الخالق سبحانه أنْ جعل لكل سر فى الكون ميلاداً يولد فيه ، ونشر أسرار كونه على خَلْقه ولم يُظهرها لجيل واحد ، وإلا لو كشف القرآن كل أسراره للأمة الأمية التى عاصرتْ نزوله لانصرفتْ عن الدعوة الجديدة بتكذيب هذه القضايا التى لم تصدقها العقول حتى فى العصر الحديث ورغم تقدم العلوم ، فمثلاً لما قال العلماء بكروية الأرض ودورانها حول الشمس لم نصدق هذه الحقائق حتى جاءتنا الصور الفضائية التى تؤكد ذلك .

وقلنا : إن ميلاد سرٍّ من أسرار الكون قد يصادف بحثاً من البشر ، فيأتى السر ويظهر على أنه نتيجة لهذا البحث ، وإلا أظهره الله للناس بالمصادفة رحمة بهم وتفضُّلاً عليهم ؛ لذلك نجد أن معظم الاكتشافات جاءت صدفة ، لم يَسْعَ إليها البشر ، ولم يذهبوا إليها بمقدمات .

والقرآن الكريم حين يتحدث عن الليل والنهار يقول كلاماً عاماً يفهمه كل معاصر لمرحلة من مراحل التقدم العلمى : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ .. (١٢) ﴾ [الإسراء]

ويقول ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ

شُكُورا (٦٢)﴾ [الفرقان] ومعنى خلفة يعني : يخالف أحدهما الآخر ويأتي بعده ، وهذا صحيح الآن ، فنحن نرى الليل يخلف النهار ، والنهار يخلف الليل ، لكن كيف نتصور هذه المسألة في بَدْء الخَلْق ؟

لو أن البداية كانت بخَلْق الأرض مواجهة للشمس ، فالنهار إذن أولاً ليس خلْفة لشيء قبله ، ثم تغيب الشمس فينشأ الليل ليكون خلْفة للنهار ، وفي المقابل إن وجدت الأرض غير مقابلة للشمس ، فالليل هو الأول ليس خلْفة لشيء قبله .

إذن : لا يحل لنا هذه المسألة إلا قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً .. (٦٢)﴾ [الفرقان] أي : من بداية الخَلْق وهما خلْفة ، وهذا لا يتأتى ولا يسوغ إلا إذا كانت الأرض مكوَّرة ، بحيث يكون الجزء المقابل للشمس منها مكوِّناً للنهار ، والجزء الآخر لليل في وقت واحد ، فلما تحركت الأرض في دورانها صار كل منها خلْفة للآخر ، إذن : معطيات القرآن يهضمها العقل ، ولا يعارضها أبداً .

تذكرون في الثلاثينيات وبالتحديد عام ١٩٢٨ فسروا السموات السبع بأنها الكواكب السبعة السيارة التي تدور حول الشمس ، ذلك ليقربوا العلم للناس ، ويشاء الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يكتشفوا بعدها (نبتون) ثم (بلوتو) فصاروا تسعة كواكب ، وأظهر الله لهم فساد هذا التأويل .

وفي الكون عجائب كثيرة نعرفها حتى عن طريق الكفار ، وكأن الله سخَّر حتى الكافر ليُثبت إيمان المؤمن ، فإذا كنا قد عرفنا اليوم عندنا على الأرض ، وأنه ليل ونهار يُكوِّنان أربعاً وعشرين ساعة ، فماذا يعني اليوم بالنسبة للكواكب الأخرى ؟

لما عرفوا أفلاك الكواكب الأخرى التي تدور حول الشمس وجدوا

أقربها للشمس عطارد ، ثم الزهرة ، ثم الأرض ، ثم المريخ ، ثم المشترى ، ثم زحل ، ثم نبتون ، ثم بلوتو ، وهو أبعد الكواكب عن الشمس .

ومن عجائب اليوم في هذه الكواكب أن يوم الزهرة مثلاً ٢٤٤ يوماً بيومنا نحن ، أما العام فيساوى ٢٢٥ يوماً بيومنا ، فكأن يوم الزهرة أطول من عامها ، كيف ؟ قالوا : لأن المدار مختلف عن مدار الأرض ، فاليوم نتيجة دورة الكوكب حول نفسه ، والعام نتيجة دورة الكوكب حول الشمس .

وقوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ .. (٢٩) ﴾ [لقمان] ولك أن تلحظ دقة الأداء القرآني في الانتقال من الفعل المضارع ﴿ يُولِجُ .. (٢٩) ﴾ [لقمان] إلى الماضى ﴿ سَخَّرَ .. (٢٩) ﴾ [لقمان] ففى الكلام عن حركة الليل والنهار قال ﴿ يُولِجُ .. (٢٩) ﴾ [لقمان] ولما تكلم عن الشمس والقمر قال : ﴿ سَخَّرَ .. (٢٩) ﴾ [لقمان] لماذا ؟

قالوا : لأن التسخير تم مرة واحدة ، ثم استقر على ذلك ، أما إيلاج الليل فى النهار ، وإيلاج النهار فى الليل فأمر مستمر يتكرر كل يوم ، فناسبه المضارع الدالّ على التكرار .

وقوله تعالى : ﴿ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى .. (٢٩) ﴾ [لقمان] أى : إلى غاية محدودة ؛ لذلك نسمى العمر النهائى : الأجل . والمراد بالأجل المسمى يوم القيامة ، فكأن الخالق سبحانه ضمن لنا استمرار الشمس والقمر إلى قيام الساعة ، فاطمئنوا .

ثم أيُّ عظمة هذه فى كوكب مضىء ينير العالم كله منذ خلقه الله وإلى قيام الساعة ، دون صيانة ودون قطعة غيار ؛ ذلك لأنه مبنى على التسخير القهرى الذى يمنع الاختيار ، فليس للشمس أنْ تمتنع

عن الشروق وكذلك القمر ، ومن العظمة فى الألوهية هذه الرحمانية الرحيمة التى تحتضن الجميع المؤمن بها والكافر .

وفى هذه الآية ورد التعبير بلفظ ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ..(٢٩)﴾ [لقمان] وفى مواضع أخرى ورد بلفظ ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى .. (٢)﴾ [الرعد] باللام بدلاً من إلى ، وكذلك فى سورتى فاطر (١٣) والزمر (٥) ، ولكل من الحرفين معنى : ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ .. (٢٩)﴾ [لقمان] تعطينا الصورة لمشية الشمس والقمر قبل وصولهما الأجل ، إنما ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى .. (١٣)﴾ [فاطر] أى : الوصول المباشر للأجل .

وكما أن لليل مهمة وللنهار مهمة ، كذلك للشمس مهمة ، وللقمر مهمة بيَّنها الله فى قوله : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا .. (٥)﴾ [يونس]

وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا (٦١)﴾ [الفرقان] فالضياء للشمس فيه نور وحرارة ، على خلاف نور القمر الذى يناسب حالماً لا حرارة فيه .

ومن عجائب أمر القمر أننا كُنَّا نحسبه قطعة من اللؤلؤ مضيئة فى السماء ، حتى إن الشعراء درجوا على تشبيه المحبوبة بالقمر ، ولو عرفوا حقيقة القمر التى عرفناها نحن اليوم ما صحَّ منهم هذا التشبيه ، فقد أطلعنا العلم أن القمر ما هو إلا حجارة وجسم معتم لا يضيء بذاته ، إنما يعكس فقط ضوء الشمس ؛ لذلك لما شبَّه أحد الشعراء محبوبته بالقمر أنكرتْ عليه هذا الشبه :

شبَّهْتُها بالبدْرِ فَاسْتَضْحكتْ   وقابَلَتْ قَوْلِي بالنُّكْرِ

أي : تكلفت الضحك

وَسفَّهَتْ قولْى وقَالَتْ متَى   سَمُجْتُ حتى صِرْتُ كالبدْرِ

ولك أن تسأل فمن أين عرفت سماجة البدر ، وأنه حجارة لا جمالَ فيها ؟ تجيب هى حين تقول :

البَدْرُ لاَ يرنُو بعيْن كَما   أرْنُو ولاَ يَبْسِمُ عَنْ ثَغْرِ

ولاَ يُميطُ المِرْطَ عن نَاهِدٍ   ولا يشُدُّ العقد فى نَحْرِ

مَنْ قَاسَ بالبَدْرِ صَفَائى فَلا   زَالَ أسِيراً فى يَدِى هَجْرى

إذن : فحقيقة القمر التى عرفناها أخيراً آية من آيات الله الظاهرة والباطنة فى الكون أطلعنا الله عليها بسلطان العلم ، فلما تيسَّر للبشر الصعود إلى سطحه عرفنا أنه جسم مُعْتم ، وصخور لا تنير بذاتها ، إنما تعكس أشعة الشمس ، فتصل إلينا هادئة حالمة ، وكأن القمر كما يقولون : (يصنع من الفسيخ شربات) .

ومن حكمة الخالق سبحانه فى خَلْق الشمس والقمر أن تكون الشمس ميزاناً لمعرفة اليوم ، والقمر لمعرفة الشهر ، وهو الأصل فى التكليفات ، لأن له شكلاً مميزاً فى أول الشهر على خلاف الشمس ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ** .. (٥) ﴾ [يونس]

وتتجلى عظمة التكليف الإلهى وارتباطه بالقمر فى فريضة الحج مثلاً ، بحيث يتنقل موعد الحج على مدار العام كله ، فمرة يأتى فى الصيف ، وأخرى فى الشتاء .. إلخ مما يُيسِّر للحجاج ما يناسب كلاً

منهم من الجو الملائم ، ويقطع الأعذار فى التخلف عن أداء هذه الفريضة .

إذن : بالتوقيت القمرى يأتى الحج فى كل أوقات السنة ؛ لذلك قال البعض : إن ليلة القدر دائرة فى العام كله إذا ما قارنا التوقيت الشمسى بالتوقيت القمرى ، فإن اتفقنا على أن ليلة القدر فى السابع والعشرين من رمضان ، فإنها ستوافق أول يناير مثلاً ، وفى العام التالى توافق الثانى ، ثم الثالث وهكذا .. وهذا من رحمة الله تعالى بعباده ..

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩) ﴾ [لقمان] وما دام أنه سبحانه خبير بما تعملون ، فهو الذى يهيىء لكم صلاح العمل بخبرته وحكمته وقدرته وقيوميته ؛ لذلك شرع لكم الأعمال التى تنظم حركة حياتكم وحركة عبادتكم ؛ لذلك نجد رمضان مثلاً يدخل بالليل فنقول هذه الليلة من رمضان ، أما يوم عرفة فيدخل بيومه لأنه يوم مجموع له الناس .

وقوله : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩) ﴾ [لقمان] معطوفة على ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ .. (٢٩) ﴾ [لقمان] فالتقدير : وألم تر أن الله بما تعملون خبير .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٣٠) ﴾